التلفزيون

نصوصه ومواده الثقافية
بين قوميته الثقافة ومحليتها

بقلم سعد لبيب

التلفزيون في معركة الثقافة بين الوحدة والتنوع :
أهمية التلفزيون في التأثير :

لم يستخدم التلفزيون في العالم الغربي بطريقة مؤثرة الا في الاربعينات من هذا القرن العشرين ، ومع ذلك فقد أثار ضجة كبيرة بين المشتغلين بالاعلام والتربية والتعليم والعلوم الاجتماعية والمعنيين بالثقافة بعامة ، على نحو ما فعل استخدام المطبعة من قبل .

ذلك ان التلفزيون خلق وسيلة كهربائية جديدة في الاتصال بالجماهير ، تنقل اليهم الكلمة والصورة المتحركة من مصدرها البعيد، لحظة حدوثها ، على موجات لاسلكية وتصل اليهم افرادا او في جماعات صغيرة ، حيث يقيمون في بيوتهم او منتدياتهم .

وبدأ التلفزيون يصل الى اجزاء من الوطن العربي في أواخر الخمسينات من هذا القرن ويعم انتشاره بعد ذلك حتى وصل الآن الى الغالبية العظمى من البلاد العربية وان لم يصل بعد الى تغطية كل مناطقها الآهلة بالسكان .

وكان طبيعيا ان تثير هذه الوسيلة الجديدة في الاتصال بالجماهير ، في المنطقة العربية ، مثل ما أثارت وما زالت تثير في الغرب والشرق البعيد من مناقشات وقضايا اساسية وتفصيلية تتصل بالعلوم الانسانية المختلفة وبالانسان المعاصر – وهو ما يجعلها تحتل مكانها في القضايا التي يثيرها موضوع الوحدة والتنوع في الثقافة العربية المعاصرة .

وترجع اهمية التلفزيون الى اعمق الاثر الذي يخلفه في نفس مشاهده بسبب الميزات المتصلة بعناصر تكوين هذه الوسيلة الجديدة ذاتها .

فالرسالة او التجربة الانسانية تنقل عن طريق التلفزيون بالصورة المتحركة المقترنة بالصوت فتحقق لها جاذبية خاصة وقدرة عالية على الاقناع يرجع بعضها الى سهولة ادراك الرسالة والانفعال بها .

ويزيد من هذه الجاذبية والقدرة احساس المشاهد بانعدام عنصر الزمن بين عنصر بث الرسالة وتلقيه لها ويحيل عملية التلقي الى عملية من المشاركة الوجدانية العميقة .

يضاف الى هذا وذاك الظروف النفسية والاجتماعية التي تحيط بعملية التلقي اذ انها تتم عادة في جو من المودة والالفة التي تسيطر على التجمع العائلي او الخاص وتكون فيه النفس البشرية مهيأة للتقبل العقلي والعاطفي .

التلفزيون جهاز انتاج وجهاز نشر :

وقد استتبع ظهور التلفزيون كوسيلة اتصال بالجماهير لها مميزاتها الخاصة ، ظهور اشكال فنية تتلاءم مع طبيعتها . صحيح ان معظم هذه الاشكال قام على اساس اشكال اخرى مماثلة في وسائل اتصال اخرى كالسينما او المسرح او الاذاعة الصوتية (الراديو) الا ان التلفزيون استطاع ان يفرض عليها مقتضياته فاصبحت اشكالا فنية جديدة لها مواصفاتها الخاصة وهي التي تعرف بالفنون التلفزيونية . فالدراما التلفزيونية مثلا اصبحت شيئا مستقلا تماما عن الدراما في السينما او المسرح او الراديو سواء من حيث اختيار الموضوع او طريقة العلاج او طريقة التنفيذ ، وان كانت قد استعانت بما وصلت اليه هذه الوسائل كلها . وما يقال عن الدراما يقال عن التحقيق التلفزيوني (الريبورتاج) او برامج المجلات وغيرها وغيرها ..

التلفزيون اذن جهاز منتج للاشكال الفنية المختلفة .

ولكنه ايضا جهاز ناشر لبعض ما تنتجه وسائل الاتصال الاخرى التي يتلاءم نشاطها مع نشاطه .. كالسينما والمسرح وقاعات البحث والمحاضرات وما الى ذلك ..

ذلك ان الانتاج التلفزيوني يكلف الجهات المنتجة له الكثير من الجهد والمال . والخدمات التلفزيونية مضطرة الى ان تقدم ساعات طويلة من الارسال في كل يوم على مدار السنة حتى تضمن لها جمهورا يشتري اجهزة الاستقبال المرتفعة الثمن ولذلك نراها مضطرة الى الاستعانة ببعض ما تنتجه وسائل الاتصال الاخرى على النحو الذي قدمنا .. هذا بالاضافه الى ان بعض هذا الانتاج غير التلفزيوني الذي يذاع عن طريق التلفزيون قد تكون له قيمة كبيرة من النواحي الثقافية او الترفيهية او الاعلامية .

ولذلك فان تأثير التلفزيون مرتبط ليس فقط بما ينتجه .. بل وبما يتاح له اذاعته من انتاج وسائل الاتصال الجماهيري الاخرى .

تكامل دور التلفزيون مع وسائل الاتصال الاخرى :

وما دمنا نتحدث عن تأثير التلفزيون على الفرد والجماعة فلا ينبغي ان يغوتنا ان التلفزيون لا يعمل في فراغ .. بمعنى ان هناك عددا من الوسائل الاخرى والانظمة والمؤثرات المختلفة تشاركه في عملية التأثير .. فهناك التراث الديني والتراث القومي والتراث الشعبي والمدرسة والاسرة والمحيط الاجتماعي الخاص والعام بالاضافة الى الكتب والصحف والراديو والسينما والمسرح وغير هذا وذاك من المؤثرات التي تكون وجدان الفرد ، وبالتالي فلا يمكن للتلفزيون ان يحقق اي اثر ايجابي او سلبي على نحو فعال الا اذا وجد من وسائل التأثير الاخرى ما يعاونه على تحقيق ما يريد من تأثير .

ماهية الثقافة عند علماء الانثروبولوجيا :

وما دمنا في صدد البحث عن التلفزيون واثره الثقافي ، فلا بد

لنا ـ بعد أن تعرضنا بشكل موجز للتلفزيون وبما يمكن ان ينتجه من أثر ـ ان نعرض بايجاز شديد ايضا لماهية الثقافة في اطار بحثنا هذا .

فعند علماء الانثروبولوجيا تعني الثقافة طريقة الحياة الخاصة بأي تجمع انساني ، فهي تشتمل على انماط السلوك المكتسبة والمعتقدات المتعارف عليها والتي يستخدمها الكل ويتوقع الآخرون منه استخدامها .. وهي التي تميز المجتمع الانساني عن التجمعات الحيوانية . فعادات الجماعه وافكارها واتجاهاتها تستمد من التاريخ وتنتقل تراثا اجتماعيا الى الاجيال المتعاقبه . واللغه هي العامل الرئيسي لنقل الثقافه وان كانت بعض انماط السلوك والاتجاهات تكتسب بوسائل اخرى غير اللغة.

وعلى هذا الاساس فالثقافة تشمل انماط الحديث والحرف اليدوية، والمباريات ، والطقوس ، والمعارف الاساسية المفروضة في المجتمع ، والمعتقدات الدينيه . ولا بد ان يتوافر لهذا كله قدر من الثبات والاستمرار .

الثقافه بمعناها العام :

اما الثقافة بمعناها العام فهي نظرة عامه الى الوجود والحياة والانسان ، وهي كذلك موقف من هؤلاء جميعا ، وقد يتجسد هذا الموقف في عقيدة أو تعبير فني او مذهب فكري او مبادىء تشريعيه أو في مسلك اخلاقي عملي .

والثقافة بهذا المعنى العام الشامل هي البناء العلوي للمجتمع ، الذي يتالف من الدين والفلسفة والفن والادب والتشريع والقيم العامة السائدة في المجتمع .

وعندما اجتمع مجموعة من الخبراء بمقر المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم بمصر اليونسكو في الفترة من ٢٩ مايو الى ٣ يونيه سنة ١٩٦٩ لوضع التوصيات اللازمة لاجراء دراسة عن اصالة الفكر والاداب والفنون العربية خلال المئة سنة الماضية ـ اتفقوا على تعريف الثقافة العربية بانها « مجموع الحقائق والنشاطات الفكرية والفنية والعلمية للمجموعة المعاصرة من الشعوب المنتمية الى الحضارة العربية، كما تتمثل هذه الثقافة في استخدام الوسائل التي تعبر بها هذه المجموعة عن نشاطاتها وتبليغ رسالتها الى ابنائها والى سائر العالم وتلقي رسالة العالم وادائها في بلادها » .

وقد اوضح الاستاذ الدكتور طه حسين معنى الثقافة بان عرّف الرجل المثقف في مقال له نشره بالعدد السابع من مجلة المجلة ـ يوليو سنة ١٩٥٧ ، بانه « هو الذي ذاق المعرفة واحبها وتأثر بها وتهيأ لها فاصبح انسانا باوسع معاني هذه الكلمة ، انسانا لا يحس الغربة في اي وطن من اوطان الناس او بيئة من بيئاتهم ، ولا يجد القلق حين يسمع الناس يتحدثون في اي ضرب من ضروب الحديث » .

الدور الوظيفي للثقافة :

وعندما وضع علماء الانثروبولوجيا تعريفهم الواسع الشامل لكلمة ثقافة اتجهوا الى ان الثقافة بهذا المفهوم كانت وما زالت تؤدي وظيفة في حياة المجتمعات الانسانية .. ولذلك فان دراستهم لانماط السلوك في التجمعات الانسانية والعادات والاتجاهات الفكرية وتطورها جميعا هي من بين المؤشرات التي يعتمدون عليها في تحديد مسار التطور الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الانساني بعد ان ثبت لهم ان انماط السلوك والاتجاهات الفكرية والعاطفية المختلفة وما قام حولها من انظمة انما كانت تلعب دورا محددا في مسار المجتمع وتثبيت انشطته الاجتماعية والاقتصادية .. وقد سميت هذه النظرية بالانثروبولوجيا الوظيفية .

وهذا هو الشأن ايضا في النظر الى الثقافة بمعناها المعاصر، فقد كاد يستقر الرأي على ان الثقافة بالرغم من انها تعبير عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة الا انها ليست تعبيرا او انعكاسا آليا مباشرا كانعكاس صورة الشيء في المرآة ، اذ يدخل في تشكيل الثقافة عامل الارادة الشخصية والخلق ، فالثقافة هي تعبير عن الواقع الا انها ايضا وسيلة فعالة لتغييره .

وقد وضح هذا المعنى في التقرير النهائي الخاص بندوة « السياسه الثقافيه » التي عقدته المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم في موناكو في الفترة من ١٨ ـ ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٦٧ وحدد السياسة الثقافية بانها « مجموع النشاط الواعي الذي يهدف الى مواجهة الاحتياجات الثقافية واستغلال المصادر البشريه والطبيعيه المتاحه في المجتمع الى اقصى حد ممكن » . كما أكد التقرير في اكثر من موضع ضرورة ربط السياسة الثقافيه بالتطور الاقتصادي والاجتماعي

ونحن اذ نظرنا الى النشاط البرنامجية التي يقدمها التلفزيون لوجدنا انها تعكس طريقه الحياه بعامة في مجتمعاتنا العربية بماتتضمنه من انماط السلوك والحرف والمباريات ، الى جانب ما تقدمه من الوان التعبير الفني والفني .. الامر الذي يجعل الثقافة بمفهومها الانثروبولوجي الشامل غير بعيده عن اطار هذا البحث . ولعل هذا المفهوم ايضا ان يكون هو الدافع الى بعض المقترحات التي سنوردها عند التعرض لدور التلفزيون في خلق ثقافة عربية وظيفية متوازنة بين الوحدة والتنوع .

تفاعل العناصر القوميه والمحليه في الثقافه :

ولقد كان موضوع الوحدة والتنوع في مجال الثقافة ، موضع اهتمام كثير من المفكرين على المستوى العالمي . ونعل من أهم ما ظهر فيها من افكار ، ما كتبه ت. س اليوت تحت عنوان « الوحدة بالنسبة للاقليم » في كتابه ملاحظات نحو تعريف الثقافة .

وقد اثبت في هذا الفصل مجموعة من النقاط الهامة ...

« فلكي تزدهر ثقافة شعب ما ينبغي الا يكون شديد الاتحاد ولا شديد الانقسام . فكلا النقيضين يعوق اطراد النمو في الثقافة .

والوحدة المقصودة في هذا المجال يجب أن تكون وحدة لا شعورية الى حد كبير . فمن المهم الا يشعر الانسان بانه مواطن في امة معينة فحسب ، بل مواطن في جزء معين من بلاده وله ولاء محلي . وهذا الولاء ينشأ من الولاء للاسرة .

وان القيمه المطلقه ـ في مجال الثقافة ـ هي ان كل منطقة ينبغي ان تكون لها ثقافتها المميزة التي ينبغي ايضا ان تنسجم مع ثقافات المناطق المجاورة وتثريها .

وان الثقافه القوميه محصله عدد غير محدود من الثقافات المحلية التي لو حللت هي نفسها لوجد انها مكونة من ثقافات محلية اصغر . »

ولعل تاريخ الحضارة الاسلامية والحضارة العربية ان يعطينا مثالا نموذجيا على استفادة التيار الثقافي العام من روافد الثقافات المحلية المتنوعة والمتعددة التي تغذيه وتلتئم معه في انسجام يثريهما معا .

ولكن القضية موضوع هذا البحث ، هي الدور الذي يمكن ان يقوم به التلفزيون في اثراء الثقافة العربية المتوازنة .

مدى التأثير الثقافي للبرامج :

ولقد تعرضنا من قبل لعناصر التأثير المتصلة بالخدمة التلفزيونية بعامة . وعلينا الآن ان نتعرض للتاثير الثقافي لهذه الخدمة .

وهذا الموضوع بذاته يثير عددا من التساؤلات الهامة علينامواجهتها قبل الدخول في اعماق الموضوع .

فهل الاثر الثقافي للتلفزيون قاصر على مواده الثقافية ؟

وما هو مدلول هذه المواد الثقافية ؟

وهل لهذه المواد الثقافية نصوص بالضرورة ؟

وما هي طبيعة هذا الاثر الثقافي للتلفزيون ؟

وللاجابة على هذه التساؤلات نقول ان بعض محطات التلفزيون ـ وليست كلها ولا غالبيتها العظمى ـ تطلق على بعض قطاعات برامجها عبارة « البرامج الثقافية » وتعني بها مجموعة البرامج التي تتعرض بشكل مباشر للانشطة المتصلة بالادب والنقد الادبي والدراسات الدينية والفنون التشكيلية والمسرح والعلوم والدراسات الانسانية

وما الى ذلك . وتقسيم البرامج الى برامج اخبارية وبرامج ثقافية وبرامج ترفيهية او فنية وبرامج تعليمية وبرامج للاطفال واخرى للمرأة وثالثة للفلاحين الى اخر هذه السلسلة من الوحدات البرنامجية انما هو تقسيم اصطلاحي بحت ومقصود به في الدرجة الاولى تيسير عمليات الادارة والارتفاع بالمستوى الحرفي للانتاج وليس المقصود به تعريف طبيعة البرامج وتحديد نوعية جمهورها وما تخلفه فيه من آثر .

ولناخذ دليلا على ذلك اصطلاح « البرامج الثقافية » في الخدمات التلفزيونية التي تاخذ به . فهي منفصلة تماما عن الدراما والموسيقى الجادة وبرامج الاحداث الجارية والبرامج التعليمية وبرامج تعليم الكبار باشكالها ونوعياتها المختلفة .

ولا يمكن بداهة ان تكون هذه الخدمات غير معترفة بارتباط الدراما والموسيقى الجادة والتعليم بالتكوين الثقافي للفرد وهي من مكوناته الاساسية .

وهذا الخلط هو الذي ادى بالكثير من الخدمات التلفزيونية الى عدم استخدام عبارة « البرامج الثقافية » اطلاقا واستخدام اصطلاحات اخرى للاشارة الى مجموعة البرامج التي كانت تدخل في اطارها الاصطلاحي .

والواقع ان كل برامج التلفزيون يمكن ان يكون لها اثر في التكوين الثقافي للفرد والمجموع سواء كانت برامج للاطفال او العائلة او كانت برامج سينمائية او حلقات مسلسلة اجنبية او عربية او كانت اخبارا او برامج متصلة بالاحداث الجارية ، وسواء كانت تمثيليات او برامج ترفيهية تنشر مجرد التسلية . بل ان مثل هذه البرامج خليقة بان تترك اثرها الثقافي في الفرد والمجموع ـ بطريق غير مباشر ـ باكثر مما تفعله البرامج والدراسات والندوات الجادة المتصلة اتصالا مباشرا بالادب او الفن او العلم .

والاثر الثقافي الذي تتركه هذه البرامج قد يكون اثرا مباشرا او غير مباشر او بمعنى آخر انه قد يكون عاجلا ، او يظهر على المدى الطويل ودون وعي من المستقبل .

وقد يتصل الاثر بمجرد اضافة معلومات ، او خلق اتجاه جديد ، او اضعاف اتجاه قديم .. او المعاونة على خلق وجهة نظر محددة جديدة .. او متحولة من وجهة نظر اخرى ، وقد يكون في خلق قيمة جديدة او تدعيمها او الاضعاف من قيمة قديمة او التحول عنها .. وقد يتمثل الاثر في تعديل سلوك قائم او العدول عنه الى سلوك جديد .. وهذا كله هو ما يعرف باتجاهات التاثير .

وينبغي الا ننسى في هذا المجال نظرية التاثير الوظيفي .. اي الذي يأخذ « الظروف الاخرى في الاعتبار » او كما يسميها البعض نظرية « التاثير الذي يهتم بالظواهر الاخرى » .

كما ينبغي الا ننسى نظرية « سريان المعلومات على مرحلتين » وهي التي تثبت ان تاثير التلفزيون ـ او غيره من وسائل الاتصال الجماهيري ـ لا يشمل فقط الذين يتلقون عنه مباشرة .. اذ ان هؤلاء او بعضهم ممن لهم تاثير على الاخرين .. يتولون نقل ما تلقوه او تأثروا به من برامج التلفزيون الى الاخرين الذين لم يشاهدوه .. ومن خلال رحلة التاثير الثنائية هذه يتم تداخل مؤثرات اخرى قد تقوى او تضعف او حتى تعكس الاثر الاول الذي احدثته الرسالة التلفزيونية .

واخيرا ينبغي ان نشير في الاجابة على التساؤل الخاص بنصوص البرامج ـ سواء كانت ثقافية او غير ثقافية ـ ان كثيرا من برامج التلفزيون ليس لها نصوص بالمعنى المعروف .. فالبرامج التلفزيونية تنقسم من حيث النص المعد اعدادا كاملا من قبل ، الى قسمين .. برامج ذات نصوص كاملة كالتمثيليات والاخبار . والبرامج المصورة تصويرا سينمائيا ، وبرامج اخرى ذات نصوص غير كاملة او شبه كاملة (اي مجرد توجيهات عامة مكتوبة او نقاط ارتكاز) كبرامج الندوات والحوار والمجلات والمنوعات وغيرها .

يضاف الى هذا ان النصوص التلفزيونية هي « نصوص تصوير » بمعنى انها تدخل دائما عنصر الصورة المتخيلة مضافا الى عنصر الكلمات المكتوبة في النص .. الامر الذي يجعل هذه النصوص عند قرائها عديمة الجدوى كنصوص ادبية الا بالنسبة للمخرج التلفزيوني الذي يقراها وهو يضع تخيله للصورة الى جانب كلمات النص .

ولعلنا ان ننتهي من هذا كله الى اننا في بحثنا عن الاثر الثقافي للتلفزيون يجب الا نقف عند ما يسمى بالبرامج الثقافية ويجب الا نعير كثيرا من الاهتمام لنصوص هذه البرامج .. وانما نبحث عن الاثر في كل ما يقدمه التلفزيون من برامج في شكلها النهائي الذي تظهر به للناس دون نظر الى الجانب الادبي في النصوص .. وهو الجانب الخفي من البرامج .

البرامج التعليمية وعلاقتها بالبرامج الثقافية :

واذا كنا قد وقفنا عند البرامج التلفزيونية بعامة واثرها الثقافي فلا بد لنا من وقفة قصيرة عند البرامج التعليمية بالذات في التلفزيون .

ونعلم مبدئيا بان هناك فرقا بين الثقافة والتعليم .. فالثقافة بمعناها العام على نحو ما اوضحنا من قبل نظرة عامة الى الوجود والحياة والانسان وهي كذلك موقف من هؤلاء جميعا .. اما التعليم فهو « تلقي معلومات منظمة بطريقة مخططة لصياغة الفكر وتوجيه الوجدان وتحديد المسلك الاخلاقي على نحو معين » .

ومع اعترافنا بهذا الفرق في طبيعة كل منهما .. الا اننا لا بد ان نعترف ايضا بانه لا ثقافة بغير اساس سليم من التعليم العام . ولا تثبيت للتعليم العام بغير تصورات وقيم فكرية وروحية واخلاقية وجمالية سليمة .. فالعلاقة بين الثقافة والتعليم وثيقة ومتبادلة .

وقد جاء في التقرير النهائي لاجتماع الخبراء الذي نظمته اليونسكو في موناكو لمناقشة السياسة الثقافية ، والذي سبق لنا ان اشرنا اليه ايضا ، ان « الذي لا شك فيه ان السياسة الثقافية ينبغي ان تسير الان جنبا الى جنب مع التطور الاقتصادي والاجتماعي ، كما ينبغي ان تسير جنبا الى جنب مع السياسة التعليمية » .

والواقع ان الدور الذي يمكن ان يلعبه التلفزيون في التعليم ، والذي يقوم بالفعل في كثير من بلاد العالم المتقدمة والنامية ، هو دور كبير عميق الاثر ثبتت فعاليته بالتجربة العملية الواقعية .

ولا نعني ان يحل التلفزيون محل المعلم داخل المدرسة او خارجها فلا غنى في العملية التعليمية عن وجود المعلم وعن الصلة المباشرة التي تنشأ بينه وبين تلاميذه ولكن التلفزيون يستطيع ان يثري العملية التعليمية بوسائل اخرى عن طريق برامجه المدرسية .

فهو يعاون المدرس في داخل الفصل الدراسي بتقديم وسائل الايضاح السمعية والبصرية اللازمة له لاكتمال العملية التعليمية .. وهي الوسائل التي لا يمكن حصول المدرس عليها بالوسائل التقليدية لضخامة تكلفتها ولاتساع مجالات التعليم كما وكيفا .

وهو يعاون مدرس الفصل بان يضيف الى جهده جهد مدرس التلفزيون الذي يختار من الصفوة المتخصصة في فروع التعليم المختلفة .. وفي طرق التدريس .

وهو يعاون الطالب في منزله بدروس « الاثراء » التي يقدمها تدعيما لما حصله الطالب في فصله .

وهو يعاون السلطات التعليمية في اتصالها بالمدرسين المنتشرين في داخل القطر او الاقليم للاخذ بطرق التعليم المتطورة .

التلفزيون وتعليم الكبار :

واذا كان هذا هو الدور الذي يمكن ان يقوم به التلفزيون في التعليم المدرسي فان له دورا اخر في تعليم الكبار .

فهو يستطيع المعاونة في حملات محو الامية ، سواء العام منها او الوظيفي وهي الحملات التي ينبغي لها ان تسير بطريقة علمية مدروسة على المستويات المحلية والقومية والاقليمية ولا تترك للمبادرات

الفردية ، وان تستغل فيها جاذبية التلفزيون وقدرته على الوصول الى اماكن بعيدة متفرقة ، وقدرته على تركيز انتباه المشاهد على اشكال بعينها ، مع عدم اغفال دور الرواد في تجمعات محو الامية الذين يقع عليهم العبء الاكبر في تعليم المهارة على الكتابة بالذات .

ويستطيع التلفزيون ان يعاون في تقديم المناهج « بعد المدرسية » او « التكميلية » المختلفة او مناهج « الانعاش » للذين استكملوا مراحل التعليم المنهجية لاختلافه ودخلوا في الحياة العملية ويلزمهم وفق منطق القرن العشرين ان يظلوا على اتصال بما يجد في فروع العلوم والحياة المختلفة ، او ان يحصلوا منها مناهج تكميلية ترفع من مستواهم التعليمي في التخصصات المتعددة . وفي هذه الحالات من الافضل ان ترتبط مثل هذه البرامج التلفزيونية ببرامج التعليم بالمراسلة ، والمراكز العملية لتعليم الكبار .

ويستطيع التلفزيون ان يعاون في رفع مستوى المهارات الفنية للعاملين في مجالات العمل المختلفة ويوسع آفاق ادراكهم للوسائل والغايات في مختلف التخصصات العملية .

كما يستطيع التلفزيون في مجال تعليم الكبار ان يقوم بدور اساسي في تعليم اللغات الاجنبية .. وتعليم اللغات الاجنبية ، على الاخص بالنسبة للشعوب العربية ، لم يعد ترفا بل ضرورة اساسية لوصول الفرد الى المستوى الثقافي المناسب .

كلمة عن الاثر الذاتي للتلفزيون :

على ان المتتبع للبحوث والنظريات المتصلة بوسائل الاتصال الجماهيري .. وبوسيلة التلفزيون بالذات يكتشف ان هناك اتجاها جديدا او نظرية احدثت دويا هائلا في علوم الاتصال هي « نظرية ماكلوهام في فهم وسائل الاتصال » ومؤدى نظرية هذا الفيلسوف الكندي المعاصر ان اكتشاف اي تكنولوجيا جديدة وتطبيقها في مجال الاتصال من شأنه ان يؤدي بذاته الى احداث تغيرات ثقافية وحضارية في المجتمع الذي تدخل اليه هذه التكنولوجيا الجديدة .. بصرف النظر عما تحمله هذه الوسيلة من افكار .. فهو يقول ان « الوسيلة في ذاتها هي الرسالة » .. اما الرسالة التي تنقلها الوسيلة او المضمون فهو رسالة اخرى تضاف الى الرسالة الاولى التي لها تأثير بذاتها .

فالتلفزيون مثلا عندما يدخل الى مجتمع من المجتمعات الانسانية ، فانه بذاته وبصرف النظر عن البرامج التي يقدمها ـ دون التقليل من اهمية هذه البرامج ـ يحدث تأثيرات عميقة في ثقافة هذا المجتمع .

من بين هذه التأثيرات مثلا ـ فيما يقرر ماكلوهام ـ تحول المجتمع من ثقافة المشافهة الى ثقافة الرؤية اي اعتماده فيما يتلقاه من خبرات انسانية على حاستي النظر والسمع بدلا من اعتماده في الدرجة الاولى على حاسة السمع وما يترتب على هذا من آثار ثقافية عميقة .

ومن هذه التأثيرات مثلا الغاء احساس الفرد بالبعد المكاني .. وبالتالي اتساع اهتماماته لكي تعبر مجتمعه المحلي الى المجتمع القطري ثم المجتمع القومي ثم المجتمع العالمي .

ومن هذه التأثيرات ايضا بداية سيادة الثقافة القومية والثقافة العالمية ـ بالنسبة للفرد ـ على حساب الثقافة المحلية والقبلية .

ولا نريد ان نقف طويلا عند هذه النظرية ، رغم انها جديرة بالبحث والدراسة فموضوع بحثنا هو « البرامج » التي يقدمها التلفزيون .. وليس « التلفزيون » في ذاته .

الملامح الثقافية للخدمة التلفزيونية العربية :

أ ـ اللهجات والثقافات المحلية :

وبعد هذا الاستعراض العام لماهية التلفزيون وماهية الثقافة وماهية التأثير الثقافي للتلفزيون .. نأتي الى الهدف المقصود من هذا البحث، وهو التعرف على الوضع القائم بالنسبة للتلفزيون بين قومية الثقافة العربية ومحليتها ..

وهنا نجد ان الخدمات التليفزيونية في المنطقة العربية تتميز بمجموعة من الملامح الاساسية بعضها راجع الى طبيعة الارسال التلفزيوني ذاته وبعضها راجع الى الامكانيات المحدودة لكثير من الخدمات التليفزيونية العربية ، ويرجع البعض الاخر الى المدى المحدود لانتشار اجهزة الاستقبال التليفزيوني بين الجماهير العربية .

فالاشارة التي تنبعث من جهاز الارسال التليفزيوني ـ على خلاف الاشارات المنبعثة من اجهزة الراديو ـ لا تتعدى في الظروف العادية دائرة نصف قطرها تسعون كيلومترا ، في حين ان اشارة الراديو على الموجتين المتوسطة والقصيرة يمكن ان تصل الى عشرات الالاف من الكيلومترات .. ومعنى هذا انه لكي تغطي الخدمة التليفزيونية قطرا عربيا متوسط المساحة فلا بد من اقامة شبكة من محطات الارسال التليفزيوني مختلفة المواصفات في عدة نقاط وفقا للتوزيع الجغرافي للسكان ووفقا للظروف الطبيعية للمكان ـ الامر الذي يقتضي نفقات باهظة لم تستطعها حتى الان غالبية الدول العربية فاكتفت باقامة محطات تخدم المدن الكبرى وحدها او شبكات محدودة المدى لتغطية اهم المناطق الآهلة بالسكان من وجهة نظر المخططين للخدمات التليفزيونية

وهذه المحطات او الشبكات التليفزيونية المحلية تعمل اساسا لخدمة الجمهور المحلي حيث لا توجد وسائل فنية لربطها بعضها بالبعض الاخر على المستوى القومي . والوسائل المعروفة حتى الان هي ربط الشبكات المحلية معا عن طريق سلسلة مترابطة من محطات التقوية او عن طريق قمر صناعي تشترك فيه الشبكات المحلية عن طريق محطات ارضية خاصة بكل منها .. ولا ترتبط من الشبكات العربية المحلية معا في خدمة مشتركة في فترات معينة الا شبكات المغرب والجزائر وتونس.

كل هذا فرض على الخدمات التليفزيونية العربية بشكل عام ان تركز معظم اهتمامها على جمهورها المحلي .. بل وفي بعض الاحيان على جمهور المدينة الكبيرة التي تخدمها ـ والاستثناء الوحيد هو بعض البرامج القليلة التي ترجو بعض المحطات العربية المنتجة لها ان تبيع حق استغلالها الى المحطات الاخرى في المنطقة العربية فهذه وحدها يراعي فيها الجانب القومي .

واول مظاهر هذا الاهتمام المحلي للبرامج التليفزيونية العربية سيطرة اللهجات المحلية عليها وتركيزها على الوان الثقافة المحلية بفروعها المختلفة وتناول مشكلات وعادات لا تعني في الاغلب الاعم الا هذا الجمهور المحلي الذي تتجه اليه .

ب ـ التبادل البرنامجي المحدود على المستوى القومي :

ولا شك انه مما يخفف من غلواء هذه الصفة المحلية الغالبة على الخدمات التليفزيونية العربية اضطرارها الى الاعتماد على بعض البرامج التليفزيونية العربية المنتجة في محطات عربية اخرى لكي تسد حاجة الخدمة التليفزيونية المستمرة الى انتاج جديد ، الامر الذي لا يتيسر دائما بالامكانيات المحلية المحدودة في اغلب الاحيان .

ولكن من المؤسف ان هذا التبادل البرنامجي بين محطات التليفزيون العربية يتم في نطاق محدود لاكثر من سبب .

ـ فالمستويات الفنية والتقنية غير متكافئة بين هذه المحطات ..

ـ وتكلفة انتاج البرامج التليفزيونية في المحطات القادرة على انتاجها تكلفة كبيرة ونطاق توزيعها محدود الامر الذي يجعل مقابل حق استغلالها في المحطات التليفزيونية الاخرى كبيرا تعجز عنه كثير من هذه المحطات .

ـ عدم وجود نظام فعال لتبادل البرامج التليفزيونية على المستوى القومي تشرف عليه هيئة قومية رغم الجهود التي يبذلها لتحقيق هذا الهدف اتحاد اذاعات الدول العربية .

ج ـ الاعتماد على البرامج التليفزيونية الاجنبية :

وامام هذا الوضع غير الملائم على المستوى العربي نجد الموقف يختلف تماما في تعامل المحطات العربية مع المنظمات والهيئات والشركات الاجنبية .. فنجد الكثير منها على استعداد لتزويد هذه

المحطات بما تحتاج اليه من البرامج التليفزيونية الاجنبية باسعار معقولة او باسعار زهيدة او بدون مقابل على الاطلاق .. مما يغري كثيرا من الخدمات التليفزيونية العربية بالاعتماد على هذه الهيئات الاجنبية في سد حاجتها من البرامج التليفزيونية الاجنبية .. بل وفي التغالي في الاعتماد على هذه البرامج .

ونعرف ان هذه البرامج الاجنبية تخضع في كل المحطات العربية لنوع ما من أنواع الرقابة .. ولكنها في الاغلب الاعم لا تعدو ان تكون رقابة سياسية او رقابة اخلاقية مع ان الاهم هو الرقابة على القيم والاتجاهات المباشرة او غير المباشرة التي تحملها هذه البرامج .

ولا يقول احد بوجوب انغلاق الثقافة العربية في وجه الثقافات الاجنبية المختلفة بل ان الثقافة العربية كانت وما زالت وستظل في اخذ وعطاء مع هذه الثقافات .. بهدف الاثراء المتبادل لكل منها .. ولكن مع ضرورة الحفاظ على مقومات الثقافة العربية وحمايتها من القيم التي تخربها من داخلها ..

د ـ طغيان ثقافة المتوسطين من اهل المدن :

وهناك اعتبار آخر في الوضع القائم بالنسبة لعلاقة التليفزيون بالثقافة العربية .. فالخدمات التليفزيونية العربية مركزة من ناحية الارسال ، كما سبق ان اوضحت ، في المدن العربية الكبيرة .

ويزيد الامر تعقيدا ان اجهزة استقبال هذه الخدمات مرتفعة الثمن بالنسبة للمستوى العام للدخول في المنطقة العربية .

وهي تقتضي في كل الاحوال وجود تيار كهربائي مستمر بسعر معقول في مناطق الاستقبال ومعروف ان هذا الظرف لا يتوفر في كثير من المناطق العربية .

كل هذا جعل الخدمات التليفزيونية العربية تتجه في غالبية الاحيان الى الطبقات المتوسطة من اهل المدن .

والمخططون لبرامج التليفزيون مسؤولون بطبيعة وظائفهم عن الملاءمة بين الخدمة التليفزيونية التي يقدمونها وبين الجمهور الذي تقدم اليه .. فهي خدمة لا تقدم في فراغ .. بل تقدم الى جمهور محدد له مواصفاته واحتياجاته الثقافية ..

والنتيجة المنطقية لكل هذا ان الخدمات التليفزيونية العربية اصبحت لا تعكس الثقافات العربية المحلية فقط بل وتركزت على ما يتناسب مع الثقافات الطبقية للمجتمعات العربية المحلية التي تغذيها.

اي ان الصفة الثقافية الغالبة على انتاجها هي المحلية الطبقية.

تخطيط الخدمات التليفزيونية العربية من اجل ثقافة متوازنة :

اذا كان هذا هو الوضع القائم بالنسبة لعلاقة التليفزيون بالثقافة العربية فما هي الوسائل التي يمكن عن طريقها وضع التليفزيون في مكانه الصحيح من اجل خدمة ثقافة عربية متوازنة بين المحلية والقومية؟

ينبغي اولا وقبل كل شيء اعتبار التليفزيون عنصرا اساسيا في السياسة الثقافية على المستوى الوطني ثم على المستوى القومي .

وهذا يقتضي بداهة ان تكون لكل دولة من الدول العربية خطة ثقافية طويلة المدى وخطط اخرى قصيرة المدى ..

ويقتضي بالبداهة ايضا ان تكون هناك خطة ثقافية عامة على المستوى القومي العربي كله .. ووضع السياسات التخطيطية عملية علمية معقدة غاية التعقيد وليست مجرد شعارات او مجموعة من الامال التي تطرح امام الناس مع كل النيات الطيبة في احسن الاحوال .. ثم لا تعرف طريقها الى الحياة .

وعملية التخطيط وان كانت قد نشأت من قبل في اطار الانشطة الاقتصادية والعلمية ، الا ان الاخذ بها في مجال الثقافة وغيرها من الانشطة الانسانية اصبح من ضرورات الحياة المعاصرة بل واعتبر اكتشافا رائعا لما حققه من نتائج .

ويكفي ان نقول ان الثقافة بارتباطها بوجدان الفرد وفكره وقيمه وموقفه من الحياة لا يمكن ان يتحقق فيها اي تطوير فعال الا اذا رسمت اهدافه وجندت من اجل تحقيقها الوسائل على المدى الطويل .. ومن الاقوال الشائعة ان عملية بناء مصنع اسهل عشرات المرات من عملية بناء وجدان فرد او جماعة .

وليس هنا مجال التفصيل في نظرية التخطيط بعامة او التخطيط الثقافي بخاصة ولكنا نرى من الضروري ان نعرض بسرعة لتعريف كلمة التخطيط بما يوضح عناصرها حتى تكون مقياسا نعرف به اذا كان ما نقوم به ، ونطلق عليه هذا الوصف هو تخطيط فعلا بالمعنى العلمي ام لا

ـ فالتخطيط عملية (أي ان يتميز بصفة الاستمرار وتفاعل عناصره مع بعضها البعض)

ـ مؤداها تجنيد الامكانات المادية والبشرية المتاحة (وهذا يقتضي حصرها اولا وتحديد مدى كفاءتها)

ـ والتي يمكن ان تتاح (وهذا يعني ضرورة العمل مقدما قبل وضع الخطة على ايجاد موارد مادية وبشرية جديدة يتوقع على اسس مقبولة توافرها) .

ـ خلال فترة زمنية معينة (هذه الفترة قد تكون طويلة تمتد الى عشرين سنة مثلا او قصيرة تمتد الى خمس سنوات او نحوها) .

ـ من اجل تحقيق اهداف محددة (وهذه الاهداف تحدد في اطار الاهداف الاشمل على المستوى الاقليمي او القومي) .

ـ عن طريق سياسات عامة وتفصيلية (فالخطط التنفيذية او السياسات تتم على مستويات الامم في المستوى الاعلى والاكثر تفصيلا في المستويات الادنى) .

ـ تختبر مدى فعاليتها على مدار التنفيذ (بمعنى ان تتلاءم مع عملية التنفيذ متابعة لمدى النجاح او الفشل في تحقيق النتائج واسباب ذلك مع تعديل السياسات التنفيذية وفقا لهذه الاختبارات) .

ـ مع الاستخدام الامثل للموارد والطاقات (اي مراعاة الجانب الاقتصادي في التنفيذ وزيادة كفاية العمل) .

ـ ومفهوم طبعا ان وضع الخطط الثقافية على المستوى المحلي او القومي يجب ان يكون في اطار خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتمشيا مع الخطط التعليمية في مستوياتها المختلفة .. ويأتي تخطيط النشاط التليفزيوني في اطار الخطة الثقافية الشاملة ..

وينبغي ان ننبه هنا الى ملاحظتين :

الاولى : ان للتلفزيون دورا اعلاميا ملحوظا في الدول العربية المختلفة .. وعليه واجبات في اطار الفكر السياسي القائم في كل بلد عربي ، وهذه مسالة منفصلة عن الدور المؤثر الذي يؤديه في مجال الحياة الثقافية وهو ما يركز عليه الحديث هنا ، وهناك سلطات في كل دولة عربية مسئولة عن الدور الاعلامي للتليفزيون في اطار فكرها السياسي الامر الذي يخرج عن اطار هذا البحث .

الملاحظة الثانية : ان الدول العربية تختلف فيما بينها في الشكل التنظيمي الذي يوضع فيه التليفزيون داخل الاطار التنظيمي العام للدولة ـ على انه مهما كان هذا الوضع فهو لا يتعارض مع ضرورة ايجاد صيغة تنفيذية مناسبة في كل دولة لربط التليفزيون بالخطة الثقافية العامة للدولة في اطار خطة أعم ، تشمل المنطقة العربية كلها وهو امل ينبغي ان تجند القوى المخلصة في سبيل الوصول اليه .

فاذا اتفقنا على ضرورة وضع خطة التليفزيون ضمن اطار الخطة الثقافية العامة ـ فان لخطة التليفزيون مجموعة من المقتضيات لا بد من مراعاتها نسوق ما نعتقد انه اهمها في الفقرات التالية :

١ ـ الوصول بالخدمة التليفزيونية الى اكبر عدد من المشاهدين :

وهذا امر طبيعي اذا اريد به للخدمة التليفزيونية اكبر قدر من التاثير .. والغريب ان هذه الفكرة التي تبدو بديهية تغيب كثيرا عن اهتمامات القائمين على الخدمات التليفزيونية بسبب انشغالهم بمحتوى

البرامج وتوجيهها .

ونشر الخدمة التليفزيونية لا بد ان يسير في عدة اتجاهات :

أ ـ العمل على مد شبكات التليفزيون الوطنية بحيث تغطي كل الاماكن الآهلة بالسكان في كل دولة عربية مع الاخذ في الاعتبار الجوانب التقنية التي تسمح بربطها بشبكات الدول العربية المجاورة .

ب ـ ان تقترن خطة امتداد الشبكات التليفزيونية مع خطة توفير التيار الكهربائي الثابت في الاماكن التي يصل اليها الارسال التليفزيوني .. وذلك ان الاعتماد على اجهزة الاستقبال التليفزيوني التي تدار بالبطاريات الجافة او السائلة عملية معقدة كثيرة التكاليف وثبت بالتجربة العملية عدم جدواها ، كما ان الاعتماد على تيار كهربائي من مولد محلي يجعل وصول الخدمة التليفزيونية الى المستقبلين مرهونا بمواعيد تشغيل مثل هذا المولد ، وهو غالبا ما يتم تشغيله لاغراض تختلف ـ ان لم تتعارض ـ مع عملية الاستقبال التليفزيوني .

هذا بالاضافة الى ان وصول تكنولوجيا الكهرباء الى اي تجمع انساني من شانه ان ينقل ثقافة هذا التجمع من طور الى طور آخر اكثر تقدما .

جـ ـ ضرورة العمل على توفير اجهزة الاستقبال التليفزيوني باسعار مناسبة لمستوى دخل الاسرة العربية في البلاد العربية المختلفة ، اما بانشاء صناعات تجميع محلية او بالاتفاق مع الشركات الاجنبية المنتجة على انتاج اجهزة بمواصفات اكثر بساطة وبالتالي اقل تكلفة ، او باعفاء الاجهزة من الضرائب والرسوم الجمركية اخذا في الاعتبار ان هذه الاجهزة تشترك في اداء خدمة ثقافية عامة وليست من امتعة الترف او الكماليات .

٢ ـ الاخذ بنظام المشاهدة الجماعية :

وذلك في الاوساط التي لا تتيح لها ظروفها الاقتصادية ان تمتلك اجهزة استقبال للمشاهدة الفردية او العائلية ، باقامة نواد للمشاهدة التليفزيونية تسير وفقا للنتائج التي وصلت اليها التجارب العالمية في هذا المجال سواء في الدول المتقدمة او الدول النامية والتي تتبنى الدعوة اليها الان منظمة اليونسكو .

والمقصود من هذا النظام ليس مجرد اتاحة فرصة المشاهدة العابرة لبرامج التليفزيون من جانب افراد او مجموعات لا تستطيع ان تشتري اجهزة الاستقبال اذ ليس من شان هذه المشاهدة العابرة ان تنتج الاثار الثقافية المرجوة وانما القصد ان يتيح النظام مشاهدة منتظمة لمجموعات محلية متناسبة ثقافيا وبرامج معينة تصمم بالاتفاق مع الخدمات التليفزيونية ، وان تكون المشاهدة فرصة لكي تدخل الجماعة فيما بينها في حوار الانطباعات والمعلومات التي خلقتها هذه البرامج التليفزيونية، ويأتي التغيير المؤثر في السلوك او القيم او الاتجاهات نتيجة مناقشات الجماعة واقتناعها بضرورات واتجاهات التغيير .. ومن اجل هذا كان من الافضل الاخذ بالشروط التالية او معظمها في انشاء هذه النوادي :

ـ تحديد عدد المشتركين في كل ناد (وليس المقصود بالنادي هنا المعنى الاصطلاحي المعروف .. بل المقصود مجرد تجمع هذه المجموعة من المشتركين في اي مكان تتفق عليه ويزود بجهاز للاستقبال التليفزيوني).

ـ ان يدفع كل مشترك اي قدر من المال مهما كان صغيرا لمجرد اشعاره بالمشاركة في ملكية الجهاز وادارته .. وتقوم بدفع بقية الثمن احدى الجهات الرسمية او الشعبية المعنية .

ـ ان يختار الاعضاء رئيسا لتنظيم المشاهدة والمناقشة من بين اعضاء الجماعة انفسهم وليس من خارجها .

ـ انشاء علاقة مستمرة بين النادي والمسئولين في الخدمة التليفزيونية لابلاغهم برغبات الاعضاء وردود فعلهم ازاء البرامج المختلفة .

ولما كانت هذه النوادي ستنتشر في الاغلب الاعم في المناطق الريفية فستؤدي بالضرورة الى رفع المستوى الثقافي الفردي والتقريب بينه وبين مستوى المدينة ، الامر الذي يؤدي الى خلق وحدة ثقافية على المستوى الوطني تكون مع مثيلاتها وحدة متنوعة الاجزاء على المستوى القومي .

٣ ـ وضع نظام مستمر لبحوث المشاهدين :

ذلك ان اي تخطيط ثقافي لا بد ان يأخذ في المحل الاول من اعتباره المستوى الثقافي للذين تصل اليهم وسيلة الاتصال مع تحديد احتياجاتهم الثقافية حتى لا تضيع الرسالة نتيجة عدم فهمها او عدم ملاءمتها لمستوى المستقبلين او نتيجة عدم اهتمامهم بها لانقطاع صلتها باحتياجاتهم .. الامر الذي يحتم ضرورة اجراء مسح ميداني للمجتمعات المحلية المختلفة التي يصلها الارسال التليفزيوني .

ونظرا لان القيم والاتجاهات الثقافية لاي تجمع بشري لا يمكن ان تكون ثابتة مع كل ما يحيط بها من تأثيرات مختلفة ومتنوعة ... لذلك فلا بد أن تكون هذه البحوث مستمرة لرصد كل ما يطرأ من تغيير في المستويات او الاحتياجات الثقافية لامكان مواجهتها بالتغيير الملائم في السياسات الثقافية .

ولما كان التليفزيون وسيلة اتصال (غير مباشرة) بمعنى انه غير قادر على الحصول على ردود الفعل لرسالته الثقافية بشكل فوري على النحو الذي يحدث في الاتصال المباشر (وجها لوجه) فلا بد أن يكون من اهداف هذه البحوث ايضا رصد ردود الفعل بالنسبة للبرامج التليفزيونية .. على الاخص لكي تجيب على الاسئلة التالية :

ـ هل وصلت الرسالة التليفزيونية الى الجمهور المعنى ؟

ـ وهل فهمت على الوجه المقصود منها ؟

ـ وما هي العناصر الاخرى التي ساعدت او تعارضت مع وصول الرسالة صحيحة ؟

ـ وهل استطاعت الرسالة ان تحقق اهدافا محددة في اضافة معلومات او تغيير اتجاهات ومواقف فكرية او عاطفية معينة او تثبيتها وكذلك الامر بالنسبة للقيم وانماط السلوك ؟

ـ وما هو المدى الذي حققته ؟

ولكي تصل الخدمات التليفزيونية العربية الى تحقيق المستوى المناسب من القومية الثقافية فلا بد ان تتبادل فيما بينها هذه البحوث او نتائجها حتى يكون المخططون المحليون للخدمات التليفزيونية في البلاد العربية المختلفة على دراية بالملامح الثقافية للهيئات العربية المختلفة وردود فعلها بالنسبة للانماط البرنامجية المختلفة لكي تعاونهم في وضع خططهم البرنامجية التي يمكن أن يكون لها اثرها الثقافي على المستوى القومي .

٤ ـ وضع الخطط البرنامجية المحلية على اساس تحقيق التوازن الثقافي :

جرى العرف في الخدمات التليفزيونية العربية اخذا باساليب العمل التي كانت متبعة من قبل في الخدمات الاذاعية الغربية ، على وضع خطط البرامج بطريقة فصلية ، بمعنى ان ترسم خطة برنامجية لكل ثلاثة اشهر فقط .

ولا باس من الخطط الفصلية ـ بل انها لا غنى عنها من الناحية العملية ـ بشرط ان تكون في اطار خطة شاملة متفق على خطوطها العامة في اطار السنة كلها ، ثم في اطار الخطة الثقافية الاشمل والتي يمكن ان توضع لخمس سنوات او اكثر .

فالتاثير الثقافي لا يمكن ان يتحقق على فترات قصيرة بالاضافة الى ان عمليات الانتاج التليفزيوني تستلزم بطبيعتها وقتا اطول كثيرا من أطار الخطة الفصلية .

وينبغي ان يدور التخطيط البرنامجي بمستوياته المختلفة على عدة محاور لكي يحقق القدر المنشود من التوازن الثقافي .

ـ فلا بد ان يعمل على نشر وتطوير الثقافات العربية المحلية باشكالها المختلفة فهي الروافد التي تغذي التيار القومي للثقافة العربية .

– بل لا بد لـه ايضا ان ينشر ويطور الثقافات الفئوية والطبقيـة في اطـار البلد العربي الواحد فهذا من شانه تثبيت الوحدة الوطنيـة وزيـادة مصادر الثقافـة القوميـة .

– ويتوازى مع هذا العمل ضرورة نشر وتدعيم القيم العربية الثقافية القوميـة المعتمدة على تاريخ حضاري طويل خلف تراثا من الفكر والفن يستطيع التليفزيـون بل ينبغي ان يعمل ، مع غيره من الوسائل ،على احيائه ونشره بالاساليب الملائمـة لجهاز التليفزيـون .

– وضع معايير دقيقة بقدر الامكان لاستخدام البرامج التليفزيونية الاجنبيـة بحيث تكـون هذه البرامج نافذة تطل منهـا الجماهير العربية على الثقافات الاجنبية فتثري ثقافتهـا الذاتية دون ان تكون اداة ، بوعي او بغير وعي ، لتخريب الثقافة العربيـة من الداخل وافسـاد قيمهـا الاساسيـة .

٥ – وضع معايير لاستخدام اللغة العربية الصحيحة في التليفزيون :

مع التقدير الكامل لما اجمع عليه الخبراء في اجتماعهم بمقـر اليونسكو (من ٢٩ مايـو الى ٣ يونيه منذ سنة ١٩٦٠) لدراسة اصالة الفكر والاداب والفنون العربية خلال المائة سنة الماضية ، من ان «الثقافة العربيـة سواء القديمـة او الحديثة او المعاصرة تتجاوز في نطـاق شمولها البلاد العربية نفسها ولذلك فان اللغة العربية لا يمكن اعتبارها المعيار الوحيد لهذه الثقافة .. » الا اننا نرى ، في اطار هـذا البحث ، ان اللغـة العربيـة تشكـل عنصرا اساسيا في تدعيم التيـار القومـي للثقافة العربيـة ..

فبحثنا يدور حول النشاط التليفزيوني – وهو نشاط يقوم علـى الصورة كمـا يقوم على الكلمة المنطوقة .. اي اللغة ، كمـا انه يقتصر على الانشطة التلفزيونية في المنطقة العربية ، وهي منطقة لغتها الاولى هي اللغـة العربية (رغم وجود لغات اخرى غير مكتوبة في الغـالـب لاقليات محدودة جدا تقيم في العالم العربي ولكنهـا تنتمـي الـى الحضارة العربية) .

ولقد كانت اللغـة العربية من العناصر الاساسية – ولا نقـول الوحيدة – في تكويـن واستمرار الثقافة العربية .. وهي لغـة حيـة متطورة لديهـا القدرة على مزيد من التطور والتكيف وفـق مقتضيات العصر .. وليست لغة مندثرة كاللغة العبرية مثلا تبذل الجهود والوسائل المصطنعـة لاحيائها لخلق وجود قومي مصطنع ..

وبالنظر الى الصفة المحلية التي تتميز بهـا الخدمة التليفزيونيـة على النحـو الذي اوضحناه من قبل ، والخوف من تردي هذه الخدمة بكاملهـا في مهاوي اللهجات المحلية المتباينة ، لذلك ينبغي العمل بوعي كامل على ضرورة سيطرة اللغـة العربية الصحيحة علـى الخدمـات التليفزيونية العربية لضمـان احتفاظها بعنصر اساسي من مقومـاتهـا القومية ، دون اهدار لحق اللهجات المحليـة في الظهور بطريقة مهذبة لا تبالغ في البعد عن صحيح اللغة .

ولسنا نقصد هنا سيطرة الاسلوب الادبي للغـة العربية ، فلقد فرضت الاذاعـة الصوتية ثم التليفزيون (وهو اذاعة مرئية وصوتية) اسلوبا خاصا في استخدام اللغـة يختلف عن الاسلوب الادبي ،واصبح يعرف بالاسلوب الاذاعي ، اهم ما يميزه البساطة واختيار الكلمـات العربيـة المالوفـة ، واستخدام الجمل القصيرة ، وتكوينها بحيـث تسهل على النطـق والسمع معـا .

٦ – وضع الخدمات التليفزيونية العربية في خدمة التعليم :

والتعليم الذي نقصده هنا هو التعليم بشقيه ، المنهجي المدرسي، وتعليم الكبار على النحـو الذي اوضحناه في فقرة سابقـة من هـذا البحث ، اخذا في الاعتبار ان التعليم ركيزة اساسية من ركائز الثقافة، وان التليفزيـون قادر بخصائصه الذاتيـة على معاونة المعلمين والدارسين على رفـع مستوى الخدمة التعليمية سـواء في داخـل المدرسة او خارجهـا والجهـود التي تبذلهـا السلطات التعليمية على مستـوى الوطـن العربي كله في سبيل توحيد السمات الاساسية لمناهج التعليـم في مراحله المختلفـة وطرق التدريس وصـولا الى قومية التعليـم فـي المنطقـة العربيـة .

ومسئولية تنفيذ هذه السياسة تقع على عاتق المسئولين عن التعليم المدرسي وتعليم الكبار في البلاد العربية ، على نفس مستوى مسئولية المخططين للخدمـات التليفزيونية العربية ، وعليهمـا معـا تقـع مسئوليـة ايجاد الصيغـة التنظيمية والاقتصادية والفنيـة المناسبـة للوصول الى هـذا الهدف .. فليست هناك صيغـة عامة يمكن تطبيقها في كل الاحوال . وتجارب العالم في هـذا المجال متعددة متباينة .

٧ – التدريب على المستوى العربي :

ونعني هنا وضع سياسات تدريبية للارتفاع بمستوى العاملين فـي حقل التليفزيون في المجال العربي على اختلاف مستوياتهم التنظيمية او تخصصاتهم وان يكون الجزء الغالب في تنفيذ خطط التدريب علـى الارض العربيـة ..

ونقصد من هذا الى عدة اهداف :

– فالارتفاع بالمستوى الفني والتقني للبرامج يعني زيادة تاثيرها على جمهورها المحلي .

– وهو يعني فتح المجال امامها للظهـور على شاشات تليفزيونـات اخـرى عربيـة .

– وهو يعني ايضا الوصول الى صيغ واشكال برنامجية جديدة تتيح للتليفزيون ان يطرق مضامين ثقافيـة لم يكـن ليتاح له ان يطرقها في ظـل الاشكال الفنيـة التقليدية .

وان يكـون التدريب في اغلبه على الارض العربية يضمن لقـاء التليفزيونيين العرب مباشرة .. فتنشأ بينهم اللغـة الفنية المشتركة التي تعاونهم في اداء مسئوليتهم على المستوى القومي .. وتضمن لهم التدريب على اجهـزة فنية لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في المحطـات التي يعملون بها .. ويلمسون الاحتياجات الثقافية لاوطان عربيـة اخرى وكيف تنعكس على انتاجها التليفزيوني فيستفيدون من ذلك خبرة تتجه بطبيعتهـا الى تدعيـم العمل القومـي .

ولا ينفي هذا اهمية التدريب في الدول المتقدمة .. على ان يكون قاصرا على المستويات التنظيمية العليـا التي تشكلت بالفعل قيمهـا الثقافيـة بحيث تثريها الروافد الاجنبية وتطغي عليها .

ويدخل في اطار التدريب .. التنسيق على المستوى العربي .. وفي لقاءات تتم بين المسئولين عن الانشطة التليفزيونية المتشابهة مـن اجل تدعيم القيم والاتجاهات الثقافية القومية في العمل التليفزيوني.

٨ – زيادة حجم التبادل التليفزيوني بين التليفزيونات العربية :

ولا شك ان هذا التبادل البرنامجي ، والذي نعني به اذاعة برامج تليفزيونية لدولة عربية في تليفزيونات دولة او دول عربية اخرى ، هو من اكثر وسائل تدعيم المعالم القوميـة للثقافة العربية ، ويزيد الدعم بمقدار زيادة عدد البرامج ومساحة الارض التي يشملها التبادل .

ويتم التبادل الان بيـن تليفزيونات الدول العربية في نطاق محدود جدا خصوصا اذا قيس بنسبة البرامج الاجنبية التي تذيعها كثيرا مـن

التلفزيونات العربية . وتتم هذه العملية اما بتبادل التسجيلات (اي شراء حق استغلالها) بين محطتين او اكثر ، او عن طريق ربط شبكة تليفزيونية وطنية باخرى مجاورة لها فتستطيع كل منهما ان تاخذ من الاخرى وتعطي .

وهذا الشكل الثاني لم يتيسر في المنطقة العربية كلها الا في فترة متاخرة جدا وبين محطات تونس والجزائر والمغرب والتي ارتبطت بشبكة ارضية عرفت باسم « مغرب فيزيون » .

ولا شك ان الجهود ينبغي ان تبذل من اجل مزيد من مثل هذا الربط بين الدول العربية المتجاورة خصوصا وهناك مشروعات مدروسة بالفعل في هذا المجال .

٩ ـ وضع خطة طويلة المدى لربط الشبكات الوطنية عن طريق الفضاء :

على ان الطريقة المثلى لربط شبكات التليفزيون العربية الوطنية في شبكة واسعة على المستوى القومي كله ، هي ربط تليفزيونات المنطقة العربية كلها عن طريق الفضاء عبر قمر صناعي يطلق خصيصا لخدمة المنطقة العربية او باستخدام احد الاقمار الصناعية العالمية التي يمكن ان تقوم ايضا بهذا العمل .

وتتلخص الفكرة ـ دون الدخول في تفاصيل فنية معقدة ـ في اقامة محطة استقبال وارسال للاشارات التليفزيونية على قمر صناعي يدور بسرعة موازية لسرعة الارض يستقبل الاشارات التليفزيونية من محطات ارضية خاصة تقام في البلاد العربية التي ترغب في ارسال برامجها وتعكس الاشارات لترسل الى المحطات الارضية للدول العربية الراغبة في استقبال الاشارة . وبذلك تستطيع اي محطة عربية ان ترسل او تستقبل ما تشاء من برامج الدول العربية الاخرى المشتركة في هذا النظام وتذيعه بين برامجها .

وبذلك تستطيع كل الدول العربية او بعضها ان تشاهد برنامجا تذيعه احداها في نفس الوقت وبنفس مستوى الجودة .. فتخلق وحدة ثقافية عقلية ووجدانية لا تستطيعها اية وسيلة اخرى من وسائل الاتصال .

ولم يعد هذا حلما بعد التقدم الضخم الذي حققته وما زالت تحققه تكنولوجيا القرن العشرين .. وهو الوسيلة التي تربط الان بين اوروبا الغربية واميركا والتي تربط جمهوريات الاتحاد السوفياتي .

وهو الوسيلة التي ستأخذ طريقها قريبا لدعم الوحدة الثقافية القومية في كل من كندا وعدد من دول اميركا اللاتينية .. وارجاء القارة الهندية الفسيحة .

ويتبنى اتحاد اذاعات الدول العربية هذه الفكرة منذ عدة سنوات .. وقد اوفدت اليونسكو ، بناء على طلب الاتحاد وعدد من الدول العربية ، بعثة اجرت دراسة مبدئية في ست دول عربية تمثل اجتماعيا وسكانيا وثقافيا بقية اجزاء المنطقة العربية كلها وانتهت الى ان المنطقة العربية منطقة نموذجية في صلاحيتها لدراسة مشروع ربط تليفزيوني عن طريق قمر صناعي بسبب مقوماتها الحضارية والثقافية واللغوية والجغرافية .. بهدف الى خدمة اغراض الثقافة والتربية والتعليم على المستوى القومي .

ولعل المستقبل القريب ان يحقق للثقافة العربية مزيدا من التطور والوحدة اذا ما احسنا الاخذ بالمنجزات العلمية الضخمة للقرن العشرين ، واخضعناها لتخطيط واع مخلص من اجل تحقيق امنية من اعز امانى العرب جميعا .

القاهرة — سعد لبيب

« دار الآداب تقدم »

مؤلفات هربرت ماركوز

		ق.ل.
الانسان ذو البعد الواحد	ترجمة جورج طرابيشي	٤٠٠
نحو التحرر (فيما وراء الانسان ذي البعد الواحد)	ترجمة ادوار الخراط	٢٠٠
الحب والحضارة	ترجمة مطاع صفدي	٦٠٠
فلسفة النفي	ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد	٥٠٠

مؤلفات كولن ولسون

الشك	ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق	٥٠٠
ضياع في سوهو	ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق	٤٠٠
طقوس في الظلام	ترجمة فاروق محمد يوسف	٧٥٠
القفص الزجاجي	ترجمة سامي خشبة	٦٠٠
اللامنتمي	ترجمة أنيس زكي حسن	٥٠٠
مابعد اللامنتمي	ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب	٤٥٠
سقوط الحضارة	ترجمة انيس زكي حسن	٦٥٠
رحلة نحو البداية	ترجمة سامي خشبة	٩٠٠
المعقول واللامعقول في الادب الحديث	ترجمة أنيس زكي حسن	٥٥٠
اصول الدافع الجنسي	ترجمة شرورو وسمير كتاب	٦٥٠